حول العمل الروحي للذهن البشري

القديس سارافيم تشيتشاغوف*

نقلته إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

١. الذكاء الحقيقي هو أن نطيع الله في كل شيء

لا يستغرق الأمر حياةً طويلة أو خبرة كبيرة لإقناع إنسانٍ بأن عليه وضْعَ كل ثقته في الربِّ وليس في نفسه. هذه الحقيقة معروفة بالفعل بشكلٍ اختباري في الطفولة، عند دراسة العلوم، والشبّان الذين يندفعون نحو حياة مستقلة ويرتكبون أخطاءً فادحةً بسبب الثقة المفرطة [بأنفسهم]، سرعانَ ما يقتنعون في الذهن والقلب بالحاجة إلى وضع كل رجائهم في الرَّب. ولكنْ لأجل حياتنا وخلاصنا، لا يكفي ألَّا نثق بأنفسنا، ولا أن نضع رجاءنا في الرَّب فقط دون عملٍ روحي. إذا كان علينا، بحسبِ كلامِ المسيح، أن نولَد من الماء والروح لنُصبح مسيحيين (يوحنا ٣:٥)، فبلا شكٍّ علينا أيضاً، كي نبقى مسيحيين مدى حياتنا، أنْ نعيش بحسب الروح، أن نحيا حياةً روحية. والحياة الروحية كنايةٌ عن جهادٍ مستمرٍ للذهن والجسد والروح، وإنكارٍ للعالم في كل شيء، وأتعابٍ روحية غير منقطعة. تماماً كما يضعف جسدنا إذا لم نتحرك ونتمرَّن، كذلك فإن النفس والقلب يخسران القدرة على القتال إذا لم نمرِّن الذهن والإرادة على العمل الروحي.

يسعى العقل البشري جاهداً لمعرفة الحقيقة، ومن الضروري تدريبه لتخليصِه من الغموض والجهل. بالتدريب، يُصبح [الذهن] نيّراً، نقياً، وقادراً على تمييز الخير من الشرِّ والحقِّ من الباطل. وحده الذهن المنير النقي قادر على صدِّ الأهواء وتقوية النفس بالفضائل؛ وحده الذهن الذي يعرف الحقيقة يستطيع محاربة الأهواء والنقائص، لأن العدو يستتر دوماً بالمكر والجهل والأفكار الخاطئة والخير الوهمي.

تسألون: "ولكنْ كيف يمكننا تحقيق معرفة ونقاوة وإنارة الذهن؟". يشير الآباء القديسون إلى طريقتين. الأولى والأهم هي الصلاة. بصلاةٍ دافئةٍ خاشعةٍ إلى الروحِ القدسِ نتلقى النعمة التي تسكب النور الإلهي في قلوبنا، ولكنْ شريطة أن نطلب بحقِ الإله الواحد ومشيئته، ونسلم ذواتنا طوعاً لمشورة آباءٍ روحيين مُختبِرين. الطريقة الثانية هي دراسة كلمة الله، وكتاباتِ الآباء القديسين، وشروحات رؤساء الكهنة القديسين العِظام، أي باقتناء تمييز الأمور والحقيقةِ الإلهيةِ، مُدرِّبين الذهن على أحكام المنطق السليم والروح القدس، وليس كما تحكمُ المشاعرُ البشرية والعالم. عندها نتلقى الفهم الواضح بأن كل ما هو محبوبٌ للعالم الفاسد هو بُطلانٌ وأكاذيب؛ المجد والشرف والثروة ومتعة العالم ليست سوى أباطيل وموتٍ للنفس؛ والافتراءُ وتشويهُ السمعة والتجديف، التي يَضطهدُ بها العالمُ أولئك الذين يحيَون في الله، هي مجدٌ حقيقي. أحزان العالم، بسبب نقص الموارد ونقص الملذَّات وتحقير حب الذات، هي فرحٌ لمن يحيون بحسب الروح وليس بحسب الجسد. الشهامة الحقيقية هي مسامحةُ الأعداء والصلاة من أجل المُفتَرين، لأنه بأفعالٍ وشيَمٍ كهذه نُشابه الله.

ليس مَن يحكم العالم هو من يجب أن نَعدَّه قوياً، بل من يبرهن على قوته وسلطته بإنكار العالم وأعماله. ليس من يُظهرون الشجاعة وصلابة الروح هم من يُخضِعون العظماء والأقوياء بالسيطرة عليهم، بل أولئك الذين

يسلمون أنفسهم طوعاً لآخرين بدافع الطاعة لأجل المسيح. إن معرفة الذات المتواضعة لهي أهم وأصعب وأكثر مجداً بكثير من معرفة واسعة بالعلوم. حتى أن أحد الشيوخ القديسين عبَّر عن الأمر هكذا: "إخضاع وإماتة نقائصنا وأهوائنا، مهما تكن ضئيلة، تستحق ثناءً أعظم مما يستحقه الاستحواذُ على قلاعٍ كثيرة وتوجيهُ الجحافل أو حتى صنع العجائب وإقامة الموتى".

يقول القديس أنطونيوس الكبير بأن الناس يُدعَون عادةً أذكياء لأن الكلمةَ [أذكياء] تُستخدم بشكل خاطئ. ليس أولئك الذين درسوا خطابات وكتابات الفلاسفة القدماء هم الأذكياء، بل أولئك الذين نفوسهم ذكية، من يستطيعون تمييز الخير من الشر؛ يهربون من الشر والمؤذي، فيما يفرحون بما هو جيد ونافع للنفس؛ هؤلاء فقط هم مَن بالحقيقة يجب أن يُدعَوا بشراً. الإنسان الذكي بحقٍّ لديه اهتمام واحد: أن يطيع ويُسرَّ الله في كل شيء، مقدِّماً الشكر في الأحزان والويلات، مؤمناً أنها لخَيرنا. الإنسان الذكي هو من يُفرح الله، ويكون أكثر صمتاً، أو إذا تكلم فإنه يتكلم قليلاً فقط، ويقول ما هو ضروري ويُسر الله فحسب. الذهنُ المقيمُ في نفسٍ نقية مُحبةٍ للهِ بالحقيقةِ يرى الله، غيرَ المولود الذي لا يُرى ولا يُوصَف، النقي وحده لأنقياء القلوب.

قال الرَّب: "لِدَيْنُونَةٍ أَتَيْتُ أَنَا إِلَى هذَا الْعَالَمِ، حَتَّى يُبْصِرَ الَّذِينَ لاَ يُبْصِرُونَ وَيَعْمَى الَّذِينَ يُبْصِرُونَ" (يوحنا ٣٩:٩).

لم يستطع الحكماء المتكبرون والفريسيون وأبرارُ العالم [أي الأبرار في نظر العالم حينها]، سماع كلمات المسيح هذه بلا مبالاة. الكبرياء هي بشكلٍ رئيسيٍّ خطيئة ذهنية، كما أن التواضع هو بشكلٍ رئيسيٍّ فضيلة ذهنية. لذلك فإن هذه الفضيلة غالباً ما تُسمى في الأسفار المقدسة باتِّضاع الفكر. ما هو اتضاع الفكر؟ إنه فهم الإنسانِ الصحيحُ للإنسانية (القديس إغناطيوس بريانشنينوف، المجلد ٤) ، وبالتالي فإنَّه فهمُ الإنسانِ الصحيحُ لنفسه. يرى الإنسان المتكبر نفسه ككائن ذاتي الوجود، وليس كخليقة الله؛ تبدو الحياة الأرضية له غير منتهية، والموت والأبدية غير موجودين. بالنسبة له، لا توجود عناية إلهية. يعترف بالعقل البشري كحاكمٍ للعالم. "ليس من الخطأ أن تكون غبياً بالطبيعة" يقول الذهبي الفم، "ولكنْ أن تصبح غبياً عبر إيذاء الذهن هو أمر غير مقبول ويستلزم عقاباً عظيماً".

هكذا هُم الذين، بسبب حكمتهم [العالمية]، يحلمون بأمورٍ كثيرةٍ حول أنفسهم ويسقطون في تعالٍ فائق. إذا كان بدء الحكمة مخافة الرب، فإن بدء الغباوة هو جهل الرب. الأشخاص الذين ينقادون إلى الكبرياء والتعالي، يؤلِّهون عقلهم. لا يوجد ما هو أخطر من هذه الحالة، لأنه يصعبُ ويستحيل تقريباً علاجها. كبرياء الذهن أفدح بكثير من كبرياء الإرادة، وإلَيكم السبب: إن كبرياء الإرادة تخضع لمراقبة الذهن الذي يستطيع أن يُصرَّ على إخضاع الإرادة له، ولكنْ حين يكون الذهن متكبراً ويفاخر بأن أفكاره وأحكامه مُسلَّمٌ بها أفضل من الآخرين، مَن أو ما الذي يمكنه عندها جعل هذا الذهن يستسلم؟ لذلك يكتب الرسول القديس: " لاَ يَخْدَعَنَّ أَحَدٌ نَفْسَهُ. إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَظُنُّ أَنَّهُ حَكِيمٌ بَيْنَكُمْ فِي هذَا الدَّهْرِ، فَلْيَصِرْ جَاهِلًا لِكَيْ يَصِيرَ حَكِيمًا!" (١ كورنثوس ١٨:٣).

وبالتالي، فإن العمل الروحي يدمر جهل الذهن الذي هو خطر للغاية على الإنسان، ولكنْ فليخشَ المسيحيون العلَّة المعاكسة – أي الكثيرَ من المعرفة والفضول البطال، لأنه في وسط المعرفة الضرورية، من الممكن أن

نحوز، بجهود عدوِّ الخلاص، معرفةً فاضحة وباطلة ومؤذية، والتي فقط تضعف الذهن. عادة ما يُخفي العدو مرارته تحت ستارِ الحلاوة، ويبتكر خيالاتٍ جميلة وجذابة لكيما يغوي العقول عبر محاكاة الحقيقة.

يحاول الشرير هزيمة أولئك الذين لديهم حياة روحية قوية وشديدة عن طريق الذهن، وذلك ليسود عليهم عبر الذهن والقلب معاً. ولتحقيق هذه الغاية فإنَّه عادةً ما يزرع فيهم أفكاراً متعالية وثاقبة تذهل الإنسان نفسه ومَن حَوله؛ الأشخاص الأذكياء أكثر عرضة للإذعان لهذا الخداع. وإذْ هم منساقون وراء أفكارهم المتكبرة، ينسون أن يسهروا على نقاوة قلوبهم وأن يتضعوا بأذهانهم الذاتية الرضى. لتجنب التعالي، لا يتعلق الناس الروحيون حقاً بشؤون وأحداث العالم بشكلٍ أهوائي. لا يدَعون قلوبهم تتعلق بها، لذا فإنهم يظهرون بمظهر أناسٍ متخلِّفين وضِعاف. كما يقول القديس باسيليوس الكبير: "فليكن سماع الأخبار العالمية مرارة بالنسبة لك، وأما أقوال القديسين فلتكن كالعسل من القرص" آمين.

٢. قوة مؤذية ومُهلكة: حول محاربة المخيلة

تحتفظ الذاكرة والمخيلة بكل شيء حسي قد رآه الإنسان وسمعه وشمّه وتذوّقه ولمسه. لذلك يجب أن يكون للذاكرة والمخيلة كلتيهما أهمية عظيمة في حياتنا، كقوىً تقود قلوبنا في نفس الطرق الجيدة أو الخطيرة التي سلكتها حياتُنا في الماضي. ولكن بما أن نظام الحياة الدنيوية يشوّه حواسنا الخارجية، فإنه ليس من الصعب أن ندرك أيَّ شرٍ عظيمٍ تجلبه على الناس هذه القوى الجبارة، أي الذاكرة والمخيلة، محتفظةً بالكثير من الأمور الخاطئة والمُهلِكةِ في القلب والذهن، فيما تحفظُ القليل جداً مما هو نيِّر وخلاصي. في ضوء ذلك، على الإنسان أن يحارب لأجل الخلاص ضد الذاكرة والمخيلة أكثر مما يحارب ضد أهوائه ونقائصه الواضحة.

إن المخيلة قوة لا عقلانية. تعمل ميكانيكياً، كما يقول الآباء القديسون، بشكل تصويري، مُصطنَع بحسب قوانين دمج الصور. يتوافق هذا النشاط فقط مع نمط حياةٍ دنيويةٍ هي نفسُها مصطنعة ولا حرية فيها. تُشتِّت المخيلة الناس عن الله، موجِّهة انتباههم إلى كل ما هو باطل وخاطئ، مشوِّشة روحهم السلامية ومزاجهم الجيد. إننا نعاني من المخيلة، ليس في الواقع وحسب، بل أيضاً في الأحلام. وبالتالي فإن المخيلة باحتفاظها بكل ما هو حسي وجسداني في أذهاننا وقلوبنا، تعرقل الارتقاء نحو الله في الحياة الروحية، تبعثر أفكارنا، وتلوثها بأفكارٍ دنسة وبذكريات سقطات وملذات الماضي. إن هذا يُغيظ، إنه ينتزع سلامنا ويحرمنا من النعمة. المخيلة هي قوة مؤذية ومهلكة للحياة الروحية.

ومع ذلك، إذا كانت المخيلة في الحياة الدنيوية لا تجلب الأذى وحده، بل الخيرَ أيضاً، وذلك حين توجه الإنسان إلى فكرة بركة الحياة المستقبلية، وحين تساعده على الانتقال إلى العالم السماوي، فلِماذا تكون المخيلة، في الحياة الروحية، مؤذية فقط؟

لأن الله الكلي الوجود والكلي القدرة والكلي الصلاح هو فوق كل مخيلة ويتجاوز كل تخيل. لذلك لا يمكن للمخيلة أن تُتحِد الإنسان بالله. قد ثبُتَ ذلك بسقطة الملاك الذي حلم بأن يكون مساوياً لله وتحوَّلَ إلى الشيطان. ملأ عقله بصور تخيلية وأصبح مُخترِع هذه القوة التي يستخدمها ليدمر البشر. يقول الآباء

القديسون أنه، عبر المخيلة، يدخل الشياطين إلى أنفس البشر ويحولونها إلى مسكنٍ للأفكار الشريرة والمقاوِمة لله.

إن ذهن الإنسان الأول، بحسب ما كتب القديس مكسيموس، كان نقياً وخالياً من الصور، ولم تؤثر فيه الأغراض الحسية، ولكن قاتل الجنس البشري ذاتَه، الشيطان، سقط بسبب أحلامه بالمساواة مع الله، لذا فقد قاد آدم إلى نقطة الحلم بذات الشيء. بعد أن سقط الإنسان في هذه الحالة الحالمة، وُلدت شتى أنواع الأهواء فيه وغرق في الأكاذيب. بحسب تعبير الآباء القديسين، فإن الإنسان قد "ملأ التعليم الأخلاقي بغواياتٍ متنوعة، وعِلمَ الطبيعة (الفيزياء) بالكثيرِ من التعاليم الخاطئة، وعلمَ اللاهوت بعقائدَ وخرافاتٍ فاحشة وغير معقولة. إن القوة العليا للنفس عليها أن تعمل في الإنسان – الذهن – الذي يجب قبل كل شيء أن يتنقى من الهوى والصور التخيلية. وما هو مؤذٍ بصورة خاصة هو أن الناس قد تبنُّوا هذه الكذبة وتمسكوا بها بشدة كما لو أنها حقيقة تعبِّر عن الواقع.

أيها الأحباء، أليس من الواضح أن الأشخاص الروحيين الذين يرغبون بالتحرر من الأهواء والأوهام ومكائد العدو ليسوا وحدهم مَن يجب أن يحاربوا المخيلة بشجاعة، بل جميع الناس؛ الدهريون، وقادة العِلم، والمعلِّمون، ورجال الدولة أيضاً يجب أن يشنوا حرباً داخليةً ضد الذاكرة وضد تخيل كل ما هو حسي، وذلك ليُجرِّدوا الأذهان من الدنس ويدركوا الحقيقة عبر استنارة النور الإلهي! نور المسيح يضيء للجميع! بحسب تعليم الآباء القديسين: "اتعب لتحفظ ذهنك بلا لون، بلا صور، بلا أشكال، ونقياً كما خلقه الله".

هناك طريقة واحدة فقط لتحقيق ذلك: بالإغلاق على الذهن في القلب. علينا إعادة الذهن، الذي يطوف في العالم الخارجي، إلى منزله السابق والطبيعي، وذلك ليُحقق غايته، ويُصلي مع القلب، و ينتبه لأفعال القلب، و يتأمل الله، ويستريح فيه، وبالتالي أن يُعتَق من الأهواء والخطايا والأكاذيب. يتطلب ذلك الإغلاقَ على الذهن في مكانٍ ضيق داخل الإنسان، بحيث لا يُمكن تشتيته وصرف انتباهه. حين تُزمع الأفعى أن تخلع جلدها، فإنها تدخل في مكانٍ ضيق وتنزلق عبره بجدٍ كبير. لذلك فإن الذهن الذي يتوق إلى سبيل الخلاص يشق طريقه عبر القلب، وبمساعدة الصلاة غير المنقطعة يخلع رداء المخيلة ويصبح نقياً، نيّراً، وأهلاً للاتحاد بالله.

تماماً كما أن أشعة الشمس تعمي الأبصار أكثر وتصبح حارقةً أكثر عند تجميعها في نقطة واحدة، كذلك فإن العقل المركز في القلب يصبح نيِّراً ويحرق صور المخيلة. بهذه الطريقة مُنِحَ الكثير من الناس الأمِّيين وغير المتعلمين مواهب الروح القدس، لأن المسيح نفسه قال: " أَحْمَدُكَ أَيُّهَا الآبُ، رَبُّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، لأَنَّكَ أَخْفَيْتَ هذِهِ عَنِ الْحُكَمَاءِ وَالْفُهَمَاءِ وَأَعْلَنْتَهَا لِلأَطْفَالِ" (لوقا ٢١:١٠).

أن نُغلق على الذهن في القلب هو أمر جليٌّ لأن الأهواء والأفكار تقبع، بحسب قول المسيح، في القلب، من حيث تبرز وتحاربنا. يعلِّمنا القديس غريغوريوس اللاهوتي وكثير من الآباء القديسين الآخرين أن أعداءنا يتخذون ملجأً بجوار القلب، فالرب نفسه قال أنه، بعد المعمودية، يخرج الروح النجس من الإنسان ويعود إليه لاحقاً حين يجد قلبه خالياً من النعمة.

وبالتالي، فإن الصلاة غير المنقطعة والتفكير بالله وبملكوت السموات وسُكنى الذهن البشري في القلب تساهم في تنقية القلب والنفس من الأهواء، وفي إنارتهما بالنور الحقيقي، وفي اقتناء معرفة إيجابية؛ وتساعد في العمل، وفي كسب وسيلة للعيش، أو على الأقل في تتميم واجباتنا الكثيرة. إذا كان الذهن يطوف في العالم الخارجي، وينساق وراء الصور والأحاسيس المُتخيَّلة، فإنه عديم النفع للآخرين، ومؤذٍ لنفسه، ومدفونٌ في الحياة.

من لهم آذانٌ للسمع فليسمعوا؛ فليفهموا بأذهانهم وقلوبهم؛ فليعرفوا الحقيقة العظيمة التي يكشفها روح الله لكل من يريد بشكلٍ واعٍ اتباع الطريق التي أشار إليها الله.

" يا رب! عَدْلُكَ عَدْلٌ إِلَى الدَّهْرِ، وَشَرِيعَتُكَ حَقٌّ" (مزمور ١٤٢:١١٨). آمين.

Source: St. Seraphim Chichigov, True Intelligence is to obey God in Everything: On the Spiritual Work of the Human Mind, Orthodoc Christianity, translated to English by Jesse Dominique, 11/12/2022, https://orthochristian.com/149887.htm, 12/12/2022, https://orthochristian.com/149888.html

*** القديس الميتروبوليت سيرافيم تشيتشاغوف ، وُلد في ٩ حزيران ١٨٥٦ في سانت بطرسبرغ، لعائلة عسكرية، أعطي اسم ليونيد. تجنّد كضابط مدفعية بعد الانتهاء من دراسته. تأثّر بتجربته في الحرب الروسية التركية ولقاءاته مع القديس يوحنا كرونشتادت، استقال من الجيش وصار كاهناً. بعد وفاة زوجته صار راهباً ومن ثم رئيساً لدير القديس أفثيميوس في سوزدال، ومن ثم رئيساً لدير أورشليم الجديدة في موسكو. انتُخب أسقفاً في ١٩٠٥ وتنقل بين عدة أبرشيات إلى أن انتُخب ميتربوليتاً على بتروغراد في ١٩٢٨. تقاعد عام ١٩٣٣ بسبب تقدمه في السن واعتلال صحته. بعد أربع سنوات تم القبض عليه ووجهت إليه تهمة الدعاية للملكية. حكم عليه بالإعدام رمياً بالرصاص، وأعدِم في ١١ كانون الأول ١٩٣٧. أعلنَت الكنيسة الروسية قداسته في ١٩٩٧ كشهيد جديد.**